جواب الاستاذ العقاد

للمجمع العلمي (١)

حضرة الرئيس الجليل ، حضرات السادة الفضلاء :

أحييكم على البعد تحية القريب الحميم ، وأشكر لكم هذه الزمالة الطيبة التي شرفتموني بها ، واستميحكم الاذن وانا أضع يدي في أيديكم ان اتحدث اليكم — انتم رجال المجمع العلمي العربي الفرد في العالم أجمع — عن اكبر ما يتحدث به المشتغلون بالعربية في هذه الآونة وأعني به المذاهب التي تتجاذب الآداب العصرية في لغة الضاد .

اصطلح بعض الكتاب على تقسيم المعاصرين من الادباء الى قسمين : قسم يسمونهم أنصار القديم او المحافظين ، والقسم الآخر يسمونهم المجددين او « المتفرنجين » . وفي اعتقادي انه تقسيم ناقص موزع لانه لا يحصر وجهة النظر من هؤلاء وهؤلاء ولا يعين على تبيين مواطن الصواب والخطإ من مذهب كل فريق .

والذي أؤثره تسهيلاً للبحث وتقريباً لحدوده ان تقسم الدعوات الادبية في العالم العربي الى ثلاثة مذاهب : هي مذهب العصبية ، والمذهب الطبيعي ، ومذهب الاباحة او الانطلاق من جميع القيود .

فأما دعاة العصبية فهم الذين ينتصرون لأدب فترة واحدة من فترات الحياة العربية كأنهم ينتصرون لعصبية قومية على نمط البداوة في تعظيم كل لانسابه لانها انسابه وتنزيه كل للغته ومأثوراته لانها لغته ومأثوراته . فهم يسبغون الكمال المطلق على اللغة العربية في فترة واحدة هي فترة الجاهلية وما لحق بها من عهد الخضرمة وصدر الدولة الأموية ، ويحسبون ان العربية هي لغة هذه الجزيرة في جزيرة العرب دون ما اتى بعدها او سيأتي بعد الآن . فلا تبديل لها ولا زيادة عليها . وان كل كلمة من كلماتها وكل أسلوب من أساليبها انما خلق في قوالب مفرغة كقوالب الخشب والحديد تبلى ولا يطرأ عليها التهذيب والتغيير ، وهي على هذا لغة قائمة في عالم وحدها

(١) أرسله الى المجمع العلمي بمناسبة انتخابه عضواً فيه .

بمعزل عن عالم الارض وما فيه من دواعي التأثير في الانسان وسائر ما يتبع الانسان من أقوال وأعمال وأجناس ودول وأطوار . وقد يزعمون أحياناً انهم يحرصون بهذا على القرآن ويغارون على الدين وما كان القرآن خلواً من كلمات معربة وجموع على غير القياس وعطف وإضافة تلاحظ فيها المعاني لا القواعد اللفظية التي استنبطها النحاة بعد ذلك . وانما سمينا هذا الفريق فريق العصبية ولم نسمهم دعاة القديم لاننا لم نعلم قط قديماً في تاريخ ادبنا كان على الشرائط التي يشترطونها ولم نعرف يوماً واحداً ولا بعض يوم كانت العربية فيه بعيدة عن سنة التحول التي تقضي عليها بقبول الكلمات والتعبيرات من جاراتها ومطاوعة المؤثرات العامة التي لا تستعصي عليها لغة ولا ناطقون بلغة . فهم دعاة عصبية بدوية وليسوا بدعاة قديم ولا هم يعرفون ما ذلك القديم الذي يتشبثون به معرفة الحصر والتقييد . وان في شرح هذا المذهب بل في مجرد الإلمام بتعريفه لتفنيداً له يغني عن التفنيد .

واما اصحاب المذهب الطبيعي فأقصد بهم الذين يفهمون ان العربية هي لغة المتكلمين بها منذ وجدوا الى اليوم والى ما بعد اليوم بما شاء الله من السنين والدهور . فهي لغة حية تنمو وتتجدد و يعرض لها ما يعرض لكل حي من الحاجة والغنى والضعف والقوة ، وللمتكلمين بها في هذا الزمان حق فيها كالحق الذي كان لاعراب الجاهلية واكبر أضعافاً مضاعفة ، لانهم أرحب ديارا واكثر عدداً وأعلم عقولاً وأوسع افنانا في شجون القول ومطارح التفكير ، وليس عليهم من واجب لهذه اللغة غير القيام على حفظها وإنهاضها وان يدرأوا عنها اسباب الفوضى والدثور . فاذا جاز لاعرابي في قفار البادية ان يزيد كلمة او كلمات و يبدع أسلوباً او أساليب فذلك جائز الآن لمن يعرفون ان العربية وآدابها وفلسفة اللغات ومقابلاتها وعوامل الزيادة والنقص فيها ما ليس يعرفه ذلك الاعرابي ولا جميع معاصريه . واللغة التي يكون عليها خطر من هذا التصرف المعقول انما هي كالمريض الذي يكون عليه الخطر من تجديد الغذاء حسب اختلاف البيئات والاجواء . ونعوذ بلغتنا التي نودعها ثمرات عقولنا وأفئدتنا ان تبتلى بهذا السقام . فان كانت العربية قد فقدت القدرة على نظم المفردات الجديدة في سلكها وهضم الأساليب المبتكرة في بنيتها وإدماج الطوارئ المستحدثة في قوالب

قواعدها فهي إذن قد فقدت الحياة فعليها العفاء و « ما لجرح بميت ايلام » . وان كانت ما تزال لها هذه القدرة فلا خوف عليها ولا مسوغ للحذر من سلوكنا بها على المسلك الطبيعي الذي لا محيص عنه للانسان ولا لشيء يتعلق بالانسان .

واما الاباحيون او المنطلقون من جميع القيود فأولئك جماعة يريد كل منهم ان يخرق في اللغة خرقاً وان يتخذ لنفسه نحواً وصرفاً وان يكتب كأنما يكتب لنفسه ويتناول الريشة الافرنجية فلا يخرم حرفاً ولا يهفو هفوة في اصول اللغة التي يكتب بها مخافة ان يُعدّ من الجهلاء ، ثم يتناول القلم العربي فيهيج ان يتعثر وينسى وان يلفق ويخترع كأنه ينشيء لساناً جديداً في جزيرة منقطعة عن العمران لا ضابط له غير هواه وعفو بديهته . ولا جناح عليه من الخطإ هنا لان الخطأ في العربية ربما كان علامة على المعرفة وقلة المبالاة !

وهؤلاء الاباحيون اما ان يكون خطؤهم جهلاً او عمداً ، فأما الجاهلون فعذرهم ظاهر واللوم على الجهل لا عليهم فيما يدعون وما يخلطون ، واما المتعمدون فلا ندري لما ذا يخطئون اذا كان الصواب في وسعهم وكانوا يكتبون بلغة يريدون لها الدوام والانتشار والمنعة على أساس القواعد الثابتة والاصول المعروفة ؟ انما القصد في هذا المذهب ان نخطيء متى كان الخطأ خيراً من الصواب او كان الصواب لا يغني عن الخطإ ، ثم متى كان خطؤنا قابلاً لان ينتظم في بنية القواعد العربية من غير إخلال بنسقها الذي يكفل لها الصون والبقاء . اما الخطأ حباً للخطإ ليس الا فهذا رأي لا يدعو اليه عاقل « يحترم » نفسه ويحترم كلاماً يبث فيه أفكاره وخواطره .

هذه أيها السادة مذاهب ثلاثة لا يخفى صوابها من مجرد التعريف المجمل بها . ويقيني انكم قد مشيتم خطوات مشكورات في أقوم هذه المذاهب وأقربها الى الغاية المرموقة ، فعملتم ما استطعتم لاغناء اللغة وحفظها من آفة الفوضى والدثور . فانا غابط نفسي على فرصة أتاحت لي صحبتكم في بقية الطريق الطويل الى تلك الغاية النبيلة التي نستقبلها أجمعين .

عباس محمود العقاد